١٧٣٧٠

أ.د. الشيخ محمدرضا رضوان طلب
عضو اللجنة العلمية في جامعة طهران

٨٨٤٤٦

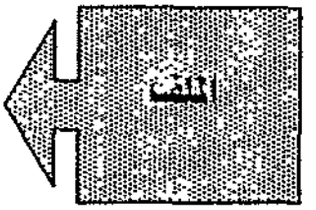

مفهوم التسامح الديني وساحاته

قال الله تعالى في محكم كتابه مشيراً الى اعزّ نعمة اكرم بها على الانسانية وهي بعثة نبيه المصطفى (ص) : ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[1].

رغم ذلك نجد من ينعت الاسلام بالعنف والارهاب ويتهمه بعدم التسامح وبمعاداة جميع البشر واثارة الحروب ضد البشرية.

و نحن في هذه الدراسة سنتطرق الى مناقشة هذا الموضوع لمعرفة مكانة السلام في الاسلام ومدى العلاقة بينهما.

يعترف الكثير من المستشرقين والعلمانيين بان الاعتراف بوجود الآخر المخالف – فرداً كان او جماعة – هو من ميزات الثقافة الاسلامية وان المسلمين حريصون على تنفيذ تلك الثقافة في حياتهم بدافع من ايمانهم وطاعة لربهم وانهم يعتبرون التسامح من أوائل القيم التي عرفتها الانسانية، قال الله تعالى على لسان هابيل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[4].

مفهوم التسامح:

التسامح من سمح بمعنى جاد بماله وسمح، يسمح، سماحة وهو الموافقة فيما طلب[٥] يقال سمح واسمح اذا جاد واعطى عن كرم وسخاء، وقيل انما يقال في السخاء سمح وأما اسمح فانما يقال في المتابعة والانقياد، ويقال أسمحت نفسه أي انقادت[٦]، وقال ابن منظور سمح أي فعل شيئا فسهّل فيه ويقال سمح البعير بعد صعوبته اذا ذلّ واسمحت قرونته لذلك الامر، اذا اطاعت وانقادت[٧].

و قال القلعجي السماحة مصدر سمح (بضم الميم وفتحها) الجود والكرم، اللين والسهولة، بذل ما لايجب بذله تفضّلاً[٨]، وقال علي بن ابي طالب(ع) لابنه الحسن: يا بنيّ ما السماحة؟ قال: البذل في اليسر والعسر[٩]، وقال في حديث آخر في معنى السماحة، هي اجابة السائل وبذل النائل[١٠]، وفي رواية: السماحة بذل المسامحة[١١]، وقال المناوي: السماحة أي الاعطاء بطيب نفس[١٢].

ومما تقدم يتبين ان التسامح يستعمل في الموارد التالية: ١- بذل المال جوداً وكرما، ٢- الاتيان بما يطلبه الناس موافقة لهم واعترافاً بهم، ٣- المتابعة والانقياد لما يراه ويفعله المرافقون في سفراو حضر، ٤- التسهيل في كل ما يفعله الانسان أو يرجع اليه، ٥- اللين والرفق في المعاملة مع جميع الناس.

الاسلام والتسامح:

الإسلام دين التسامح والسلام، فقد ورد عن رسول الله(ص) "بعثت بالحنيفية السمحة"[١٣]، وقال (ص) "احبّ الاديان الى الله الحنيفية السمحة"[١٤]، وقال(ص) "خير خصال المسلمين السماحة والسّخاء"[١٥]، وقال (ص) "رحم الله امرءاً سهل البيع وسهل الشراء وسهل الاخذ وسهل العطاء وسهل القضاء وسهل التقاضي"[١٦]، وقال (ص) "حرمت النارعلى الهين اللين السهل القريب"[١٧].

وللتسامح قيمة كبرى في الإسلام فهو نابع من السماحة بكل ما تعنيه من حرية ومساواة من غير تفوق جنسي أو تمييز عنصري، وقد حثنا ديننا الحنيف على الاعتقاد

بجميع الديانات، قال الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْه من رَّبِّه وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللّه وَمَلآئكَته وكُتُبه وَرُسُله لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُله﴾[١٨].

ولا يعني التسامح التنازل او التفريط بالحق ، بل هو الاعتراف بالآخر ، والاحترام المتبادل والاعتراف بحقوق الآخرين وحرياتهم، بما فيه من تنوع واختلاف، ويمكن رصد قسمين هامين للتسامح:

الأول التسامح الديني: وهو التعايش بين الأديان، بمعنى حرية ممارسة الشعائر الدينية والتخلي عن التعصب الديني والتمييز العنصري.

والثاني التسامح الفكري: وهو عبارة عن الالتزام بآداب الحوار والتخاطب وعدم التعصب للأفكار الشخصية واعطاء الحق للآخرين من أجل الابداع والاجتهاد.

والتأريخ خير شاهد على النزعة الإنسانية للإسلام، وبالتسامح الذي ربط علاقات المسلمين بمعتنقي الأديان الأخرى، حيث دعا القرآن إلى مجادلتهم بالتي هي أحسن ومحاولة إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبيل رَبِّكَ بالْحكْمَة وَالْمَوْعظَة الْحَسَنَة وَجَادلْهُم بالَّتي هيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبيله وَهُوَ أَعْلَمُ بالْمُهْتَدينَ﴾[١٩].

و بصورة عامة، يمكن ان نلاحظ مدى اهمية مسألة التسامح في المنهج الاسلامي من خلال عدة امور، منها:

١- لا اكراه في الدين: فالدين أمر قلبي ولا يدخل شيء في القلب الا بعد القبول والايمان به، قال الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ في الدّين قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ منَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوت وَيُؤْمن باللّه فَقَد اسْتَمْسَكَ بالْعُرْوَة الْوُثْقَى﴾[٢٠].

وبخلاف ما كان يتّبعه زعماء أغلب الديانات من استخدام العنف كوسيلة للدعوة الى اديانهم ولو ادى ذلك الى القتل والبطش، فان المسلمين عند انتصارهم في الحروب كانوا يبذلون قصارى جهدهم في حماية السكان على اختلاف اديانهم ويتركونهم على ما يدينون ويقبلون منهم الجزية، وفي الحديث الشريف: "اتركوهم ومايدينون".

يقول المفكرالمعاصر "محمد أركون" في كتابه "اين هوالفكرالاسلامي المعاصر": "ان

التسامح وعدمه لايرتبط بالدين والعقيدة وانما يأتي من التاريخ والمجتمع والسلطات السياسية ولا شك ان الحكومة الدينية ليست بسلطة سياسية وانما لها ميزاتها الملائمة مع العقيدة الكائنة في الصدور.

ويشهد بذلك تطورالاستراتيجية اليابانية من سياسة الافراط في استخدام العنف طوال قرون عديدة الى سياسة الافراط في تمجيد مقولة "الغفران والتسامح" منذ هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية حتى الآن وقد لعب العامل الاقليمي من جهة والضغوط الخارجية من جهة اخرى دورا ملحوظا في تحول اليابان من دولة ضعيفة تخاف الاحتلال الى دولة ذات نزعة عسكرية توسعية قادت الى احتلال دول مجاورة، وان سياسة الغفران والتسامح تشكل المدخل الاساسي لاعادة تطبيع العلاقات بين الدول الكبرى التي مارست الاستعمار باشكاله والشعوب التي خضعت لاحتلالها". ولعله اراد بقوله ان التسامح وعدمه لايرتبط بالدين ان الدين لايمكن له ان يسمح بالاكراه والعنف والعدوان على الاخرين واخضاعهم بالسيف.

٢- حرمة اماكن العبادة: فقد أكد الإسلام أنَّ أماكن العبادة على اختلافها محترمة، قال تعالى: "ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لهدّمتْ صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً"، وقد وردت روايات كثيرة في انه لا تهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم[٢١].

٣- حرمة الانسان: فالدين الاسلامي يؤكد على المسلمين أنْ ينظروا إلى غيرهم على أنّهم بشر، لايرضون لهم الا بالخيرو الاحسان، وقد اوصى اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب مالكا حينما وجهه الى مصر بقوله: "واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولاتكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم اكلهم، فانهم صنفان اما اخ لك في الدين واما نظير لك في الخلق"، وقال احد العرفاء: ان العارف يرى كل العالم من مظاهر وجود الله وتجلياته ويرى الانسان مظهرا تاما له جل وعلا فيحب كل العالم لنسبتهم الى الله تعالى والخلق كلهم عياله ويشفق على خدمتهم ويعتبرها من افضل العبادات.

٤- الدعوة الى الاخوة والمحبة: فقد دعا الاسلام الجميع الى السلام، فبنى علاقة المسلمين بعضهم ببعض على اساس المحبة والأخوة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢٢]، وعلاقة المسلمين مع غيرهم على اساس التعارف والتعاون "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[٢٣]، لا بل دعا المسلمين الى البر بهم والاحسان اليهم، قال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢٤].

كما ان الاسلام قد قضى على مظاهر التفرقة والطبقية وأكد أنه لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى، وساوى بين الأفراد في الحقوق والواجبات، وأمر المؤمنين كافة بالدخول في السلم كي يتسنى لهم تبادل المنافع وإشاعة الخير بينهم، وجعل علاقة المسلمين مع غيرهم قائمة على المسالمة والأمن وعدم الاعتداء إلا إذا اعتدي عليهم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٢٥].

وقد اعترف الكثير من المفكرين المسيحيين واليهود بتسامح الإسلام، يقول توماس أرنولد في كتابه " الدعوة إلى الإسلام": " لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة وحرية، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح".

وهذا درس عملي لما ينبغي أن يكون عليه التسامح الديني الذي يجب أن يتبع بنفس النهج الذي سلكه السلف الصالح، وأن ينطلق من موقف القوة والاعتزاز لا من موقف الضعف والاستسلام.

مقتطفات من مشاهد التسامح في السيرة النبوية الشريفة:

شهدت سيرة النبي الاعظم (ص) بأنه كان يتعامل بالتسامح والتسهيل والمحبّة والاكرام مع غير المسلمين في مواطن عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- إنَّ المصطفى (ص) استقبل وفد نصارى الحبشة، وأكرمهم بنفسه وقال: " إنَّهم كانوا لأصحابنا مكرمين، فأحبّ أنْ أكرمهم بنفسي ".

٢- استقبل النبيُّ (ص) وفد نصارى نجران، وسمح لهم بإقامة الصلاة في مسجده.

٣- صالح رسول الله (ص) اهل نجران على ان لاتهدم لهم بيعة ولايخرج لهم قسّ ولا يفتنون عن دينهم ما لم يحدثوا حدثا أو يأكلوا الربا.

٤- تلقى النبيُّ (ص) هدية من المقوقس في مصر، وهي الجارية التي أنجبت إبراهيم ابن المصطفى (ص)، فوقف وقال: " استوصوا بالقبط خيرا، فإنَّ لي فيهم نسباً وصهرا "، والقبط هم نصارى عرب يستقرون إلى الآن بمصر.

٥- استجار رسول الله (ص) برجل مشرك يقال له مُطعم بن عدي، حيث دخل النبي(ص) في حماه حينما دخل مكة عائدا من الطائف، وذهبت الأيام، وتوالت، وإذا بمطعم يموت كافرا، فوقف حسان بن ثابت (رض)، ورثاه بالقصيدة التي مطلعها:

فلو أنَّ دهراً أخلدَ مجدَه اليوم واحداً لأخلدَ الدَّهرُ مجدَه اليوم مطعما

فبكى النبي (ص) اشفاقا على مطعم ولطفه بالنسبة اليه قبل هجرته (ص).

٦- كان (ص) يتزاور مع اهل الكتاب، فقد روي أن الرسول (ص) كان يحضر ولائم أهل الكتاب كما ويحضرجنائزهم، ويعود مرضاهم، ويزورهم، ويكرمهم، وقد روي أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته، ودعاهم إلى الجلوس.

الجهاد والتسامح:

يتساءل البعض: كيف يمكن التوفيق بين دعوة الاسلام الى التسامح من جهة ودعوته الى الجهاد من جهة اخرى؟

نقول: لاشك وان الجهاد اوسع مفهوماً من الحرب والقتال وله ساحات ومجالات

تغطي كل حياة الانسان، ولايوجد في جل تلك المجالات الا العطوفة والمحبة والتعاون والتآخي، وقد نظر القرآن الكريم الى هذا المفهوم من منظار راق ينسجم تماماً مع موقفه المؤيد لحقوق الانسان، قال الله تعالى: ﴿ الَّذينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ في سَبيل اللّه بأَمْوَالهمْ وَأَنفُسهمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عندَ اللّه﴾[٢٦] وحث الناس على الاجتهاد فيما يرتضيه تعالى والابتعاد عما يغضبه سبحانه. ويدخل في هذا الباب مكافحة الفقر والجهاد بالاموال، وجهاد القلب وهو مجاهدة الشيطان والنفس والشهوات المحرمة ويسمى بالجهاد الاكبر، وجهاد اللسان وهو بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لائمة المسلمين والناس اجمعين، وجهاد اليد وهو التعبئة العامة والوقوف بقوة السلاح بوجه العدو الذي يشهر سلاحه ويقاتل المسلمين او من يمنع الناس من ان يسمعوا كلام الله او يجيبوا داعي الله.

وبصورة عامة فإن الإسلام منع القتال بدون سبب، ودعا إلى قبول المبادرة إلى السلم، ونهى عن التوسع والانتقام والتخريب والدمار، كما منع عن قتل من لا يقاتل، من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة، فعن أنس أن النبي(ص) قال: "انطلقوا بسم الله وعلى ملة رسول الله (ص) ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة"، وحرّم التمثيل بالقتيل، ونهى عن إساءة معاملة الأسرى والإضرار بهم بل جعل إطعامهم من صفات الأبرار المقربين إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبّه مسْكينًا وَيَتيمًا وَأَسيرًا، إنَّمَا نُطْعمُكُمْ لوَجْه اللّه لَا نُريدُ منكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا﴾[٢٧].

وبناءً على ما سبق، وبملاحظة سائر الايات الكريمة التي تدعو للجهاد كقوله تعالى: "ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان" التي تحث على انقاذ المستضعفين، وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فتْنَةٌ﴾ التي تؤكد لزوم القتال من اجل درء الفتن ورفع الظلم، يتضح ان الجهاد له نفس ما للتسامح من اهداف سامية تصب بمجملها في خدمة الانسانية، فكما ان التسامح هو التعاطف بهدف مراعاة حقوق الانسان، فالجهاد ايضا كذلك، فهو تعاطف مع المستضعفين بهدف الدفاع عن حقوقهم، ورفع للظلم والاضطهاد عن البشرية.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الهوامش:

١ - آل عمران/ ١٠٣.

٢ - المائده/٢٨.

٣ - زخرف/٩٨.

٤ - الشوري/٤.

٥ - العين للفراهيدي، ج ٣، ص ١٥٥.

٦ - النهايه في غريب الحديث، ج ٢، ص ٣٩٨.

٧ - لسان العرب، ج ٢، ص ٤٨٩.

٨ - معجم لغه الفقهاء، ص ٢٤٩.

٩ - كنز العمّال، ٢١٥/١٦.

١٠ - معاني الاخبار، ص ٤٠١.

١١ - فيض القدير، ص ٥٩١.

١٢ - المصدرالسابق / ص، ٥٩١.

١٣ - النهايه لابن الاثير، ج ١، ص ٤٢٤.

١٤ - كتاب العين للفراهيدي، ج ٢، ص ٢٤٨.

١٥ - مستدرک الوسائل ، ج ١٥، ص ٢٥٨.

١٦ - مجمع الزوائد ج ٤ ص ٧٤ .

١٧ - مجمع الزوائد ج ٤ ص ٧٤ .

١٨ - البقرة/٢٨٥.

١٩ - النحل /١٢٥.

٢٠- البقرة /٢٥٦ .

٢١- السنن الكبري ج ٩ ص٢٠٢ .

٢٢- الحجرات /١٠.

٢٣- الحجرات /١٣.

٢٤ - الممتحنة /٨ .

٢٥ - البقرة /١٩٠.

٢٦ - التوبة /٢٠.

٢٧ - سورة الإنسان الآية ٨-٩.